ROUTE
EDUCATIONAL & SOCIAL SCIENCE JOURNAL
ISSN: 2148-5518

Volume 7, Issue 12, December 2020, p. 87-103

Article Information

Article Type: *Research Article*

This article was checked by iThenticate.

Doi Number: http://dx.doi.org/10.17121/ressjournal.2860

Article History:
Received
14/09/2020
Received in revised form
18/10/2020
Available online
15/12/2020

SIGN LANGUAGE IN THE HOLY QURAN: A SPECIAL STUDY IN FACE AND EYES LANGUAGE

Jamil Hussein Abdullah AYYASH [1]
Emad Saad Fayez Abu HASSAN [2]

Abstract

This study examines the sign language - the language of the face and eyes - in the Noble Qur'an, and adopts the analysis of the Qur'anic verses in which a number of facial and eye expressions were mentioned, highlighting their importance in terms of linguistic and semantic terms, in the past and present.This study is based on the idea that human communication does not stop at the limits of the spoken word, rather, it goes beyond it to communicate with facial expressions and eyes, and their role in conveying the desired idea, and exploring and diagnosing their impact on meaning, for they are tools that help in conveying the meaning, and an ability to translate the feelings and emotions that are going on in the soul with complete sincerity, relying on the analysis of the discourse in The Holy Quran.

Hence, the subject of this study has been chosen, and we have given it the title: (The Sign Language in the Noble Qur'an: A Special Study in the Language of the Face and the Eyes). We were content with the language of the face and eyes of the body. Because the topic is so broad, these limited pages cannot accommodate it fully.

The importance of the study lies in the fact that it revealed a distinctive and pioneering role in the language of the face and eyes in the Holy Quran because they help in correct interpretation and understanding of the Quranic text, in addition to being an important factor in human communication.

In the study, the two researchers followed the inductive approach to trace partial matters by observation in order to produce general judgments from them, which depends on tracking the Qur'anic signs and deducing holistic concepts from them.

This study discusses the concept of sign linguistically and terminologically, and traces it to the ancients and modernists, then talks about the language of the face and eyes in the Noble Qur'an, revealing the significance of each indicative term related to them in the revelation. The study has concluded with results, followed by a set of recommendations.

[1]Dr., Arab American University, Palestine, jamil.ayyash@aaup.edu
[2]Dr., Arab American University, Palestine

Keywords: The Noble Qur'an, Sign Language, Semantics.

اللغة الإشارية في القرآن الكريم: دراسة خاصة في لغة الوجه والعينين

جميل حسين عبدالله عيّاش [3]

عماد سعد فايز أبو حسن [4]

الملخص

تبحثُ هذه الدراسة في اللغة الإشارية –لغة الوجه والعينين– في القرآن الكريم، وتعتمدُ تحليل الآيات القرآنية التي ورد فيها عدد من تعبيرات الوجه والعينين، وإبراز أهميتهما من الناحيتين اللغوية والدلالية قديماً وحديثاً، وتقوم هذه الدراسة على فكرة أنَّ التواصل الإنساني لا يتوقف عند حدود الكلمة المنطوقة، بل يتعدّاها إلى التواصل بتعبيرات الوجه والعينين، ودورهما في إيصال الفكرة المنشودة، واستشراف أثرهما في المعنى وتشخيصه، فهما يمثّلان أدواتٍ مساعدةً في إيصال المعنى، وقدرةً في ترجمة ما يدور في النفس من مشاعرَ وانفعالات بصدق تام، معتمدة في ذلك على تحليل الخطاب في القرآن الكريم. من هنا وقع الاختيارُ على موضوع هذه الدراسة، وقد تمت تسميتها بـ (اللغة الإشارية في القرآن الكريم: دراسة خاصة في لغة الوجه والعينين)، واكتفينا بلغة الوجه والعينين من الجسد؛ لأنّ الموضوع واسعٌ، لا تتسع هذه الصفحات المحدودة لتناوله بصورة كاملة.

وتكمن أهمية الدراسة في أنّها كشفت عن دور مميّز ورائد للغة الوجه والعينين في القرآن الكريم؛ لأنهما يساعدان في تفسير النص القرآني وفهمه فهماً صحيحاً، إلى جانب كونهما عاملاً مهمّاً في التواصل البشري.

وقد اتّبع الباحثان في الدراسة المنهج الاستقرائي، الذي يعمل على تتبّع الأمور الجزئية بالملاحظة حتى تنتج منها أحكام عامة، وهو ما يعتمد على تتبّع الإشارات القرآنية، واستنتاج مفاهيم كلية منها. وناقشت هذه الدراسة مفهوم الإشارة لغة واصطلاحاً، وتتبعها عند القدماء والمحدثين، ثمّ تحدّثت عن لغة الوجه والعينين في القرآن الكريم، والكشف عن دلالة كل مفردة إشارية تتعلق بهما في التنزيل. وخلصت الدراسة بنتائج، تبعها مجموعة من التوصيات.

الكلمات المفتاحية: القرآن الكريم، اللغة الإشارية، علم الدلالة.

المقدمة:

[3] دكتور، الجامعة العربية الأمريكية ، فلسطين، jamil.ayyash@aaup.edu

[4] دكتور، الجامعة العربية الأمريكية، فلسطين

تعدّ اللغة بألسنتها المختلفة، الوسيط الذي نستطيع من خلاله إيصال آرائنا وأفكارنا للآخرين، فاللغة نعبّر عمّا يدور في أذهاننا من مشاعر، وأحاسيس، وانفعالات، واللغة وحدها قد لا تكفي لإيصال المعرفة بشكلها الصحيح، وإنما قد يلزمها تواصل بصري، فهو القادر على إيصال تلك العواطف والمشاعر، فهذه الدراسة تقوم على استحضار لغة الوجه والعينين في القرآن الكريم، لما لهما من أهمية في التواصل البشري، وفي إيجاد تأثير عميق في الآخرين، مما حدا بعلماء الاتصال بشكل عام، وعلماء التربية بوجه خاص، إلى زيادة اهتمامهم بهذا الموضوع، من هنا برزت بعض المحاولات من بعض الكتّاب للإشارة إلى وجود هذه اللغة في القرآن الكريم، ولعل من أهمها، قوله تعالى: {قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا، يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا، فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا}(5). فاستخدام الإشارة في الآية القرآنية، يمثّل دعوة إلى استخدام اللغة الإشارية.

وتكمنُ أهميّة الوجه والعينين، في كونهما يختزلان بُعداً دلاليّاً، يُضمر بُعداً نفسياً، وهما بُعدان يتجاوزان الدلالة المُعجمية السطحية لألفاظ التعبير الجسدي، فحركة أيّ منهما–كحركة العين مثلاً– تُعبّر عن مفاهيم دلالية وتكشف عن بُنية نفسية، وهذا ما لا يُحدثه التّعبير اللفظي الذي تقتصر دلالته على المعنى المُعجمي والسّياقي.

من هنا انطلقت فكرة الكتابة في موضوع اللغة الإشارية في القرآن الكريم: دراسة في لغة الوجه والعينين، للنظر في دلالات هذه اللغة ومدى تأثيرها في الآخرين، فالقرآن الكريم بحر زاخر بما فيه من علوم، وما يحتويه من إشراقات ربانيّة.

أولاً: الإشارة لغة واصطلاحاً:

أ– الإشارة لغة:

هي مشتقة من الفعل شَوَرَ، نقول: " أَشار إليه وشَوَّر: أَومَأَ، يَكُونُ ذَلِكَ بالكفِّ وَالْعَيْنِ وَالْحَاجِبِ، وأَشار الرجل يُشِيرُ إِشارَةً إِذا أَومَأَ بيديْه، ويقال: شَوَّرْت إِليه بِيَدِي وأَشرت إِليه أَي لَوَّحْت إِليه وأَلَحْتُ أَيضاً(6)، وتستخدم هذه الإشارة للتفاهم بين النّاس، "فالنّاس لا يتفاهمون بالإشارة إلا إذا عرفوا تأويلها، وأدركوا علاقتها بالشيء المشار إليه"(7).

ب– الإشارة في الاصطلاح:

هي "علاقة بين اللفظ، وما يشير إليه المقام المستخدم فيه"(8). وتُعرّف أيضاً بأنّها:" الحوار النّفسيّ الذي يجري بين الأطراف المعنيّة والمعاني المتنقّلة بينهم، لا من النّطق، بل من خلال الصّمت والملامح العامّة للإنسان الصّامت؛ كنظرات العيون وتعبيرات الوجه وحركات الجسم"(9). وهناك من يُعرّفها بأنّها:" إيماءات وإشارات جسديّة تُرسل رسالات مُحدّدة في مواقف وظروف مختلفة، تُظهر لك المشاعر الدفينة، وتُخرجها للسطح، فتصل من خلالها معلومات، أو أفكار عن الشّخص الآخر، بحيث لا يستطيع إخفاء الأفكار التي تدور في ذهنه"(10).

وقدّم جميل صليبا ثلاثة معانٍ للإشارة في معجمه الفلسفي، "أولها: هي شيء مدرك بالحوّاس يجوز التصديق بشيء آخر غير مدرك، أو غير ممكن للإدراك. كازدياد النبض، فهو إشارة إلى وجود الحمّى، كما أنّ البكاء إشارة إلى الحزن. ثانيها: الإشارة فعل

(سورة مريم، الآيات 27–29).

[6]– (ابن منظور، 1994، ط3، مادة شور، ج4، ص 436– 437).

[7]– (صليبا، 1982، ج1، ص 86).

[8]– (محمد يونس، 2004، ص 19).

[9]– (عودة، 2004، عدد 112، ص 1–2).

[10]– (بني يونس، 2007، ط1، ص 340).

خارجي مُدرك، الغرض من التعبير عن إرادة، والمثال على ذلك، أنّك تشير بيدك إلى الرجل فستوقفه، أو تطلب من المجيء إليك، فأنت تعبّر بهذه الإشارات كلّها عن إرادتك فتأمر وتنهي، أو تبلغ بإشارتك ما تريد من الأفكار والعواطف. ثالثها: الإشارة شيء مُحقّق في الخارج من شكل، أو صوت ينوب عن شيء غائب، أو غير ممكن الإدراك، وهو يساعد على إخطار هذا الشيء الغائب في الذهن، كالإشارات الدالة على المعادن في علم الكيمياء، أو ينضم إلى غيره من الإشارات المجانسة له لإجراء عمليات متعلقة بالأشياء المشار إليها، كإشارات اللغة، وإشارات الحساب والجبر وغيرها"(11).

لاشكّ أنّ هذه المعاني الثلاثة تشترك في معنى عام واحد، وهو أنّ الإشارة شيء يخبر بشيء آخر، أو يعرّف به، ويحلّ محلّه. وهذا يفرض وجود سبب يمنع الوصول إلى الشيء المشار إليه، أو يجعل الوصول إليه صعباً. لذلك كانت الإشارة في غالب الأمر إدراكاً حسيّاً حاضراً، أو شيئاً بسيطاً، يحل محل الأشياء المشار إليها وهي حقائق بعيدة، أو عمليات ذهنية، أو مجموعات مقعّدة. ولكن هذا المعنى العام لا يخلو من الالتباس، لأنّ الإشارة لا تحل دائماً محل الشيء المشار إليه، فالدخان مثلاً لا يحل محل النّار. إذن الإشارة هي العلاقة بين اللغة والعالم، أو الاسم والمسمّى، وهي وسيلة اتصال وتواصل تحكمها قواعد ومعايير إشارية.

ومن خلال النّظر في التّعريفات السّابقة، يتبيّن أنّ الإشارة هي ومضة شعوريّة أو لا شعوريّة، تنطلقُ من المَرءِ شعوريّاً أو لا شعوريّاً؛ لإيصالِ فكرةٍ ما، وهي مهارة اجتماعيّة عرفها الإنسان منذ القدَم واستعملها في حياته اليوميّة.

ثانياً: الإشارة عند القدماء والمحدثين:

أ- الإشارة عند القدماء:

يعدّ الجاحظ -فيما نعلم- من أوائل من تحدّث عن أنواع الدلالة اللفظية وغير اللفظية في لغة العرب، إذ حدّدها بخمسة، حيث قال مبيّناً لها، وموضّحاً لفوائدها: "وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء، لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة، ثم العَقد(12)، ثم الخط، ثم الحال التي تسمى نِصبة. والنصبة هي الحال الدالة، التي تقوم مقام تلك الأصناف، ولا تقصر عن تلك الدلالات، ولكل واحد من هذه الخمسة صورة بائنة من صورة صاحبتها، وحلية مخالفة لحلية أختها، وهي التي تكشف لك عن أعيان المعاني في الجملة، ثم عن حقائقها في التفسير، وعن أجناسها وأقدارها، وعن خاصّها وعامها، وعن طبقاتها في السارّ والضارّ، وعما يكون منها لغواً بهرجاً، وساقطاً مُطَّرَحاً"(13).

يبدو أنّ مصطلح (الإشارة) الوارد في كلام الجاحظ من بين هذه الأصناف يعني بوضوح لغة الجسد (اللغة غير اللفظية)، حيث احتلت المركز الأول في رأس العلامات غير اللفظيّة من حيث الوظيفة الاتصالية، كما أنّها احتلت المركز الثاني بعد اللفظ بين وسائط الاتصال على الإطلاق، وهذا ما صرّح به الجاحظ بعبارة واضحة، أنّ الإشارة قد تقوم بدور أكبر من الدور الذي تقوم به اللغة، وهذا واضح من كلامه: "ومبلغ الإشارة أبعد من مبلغ الصوت، وهذا باب تتقدم فيه الإشارة الصوت"(14).

11- (صليبا، 1982، ج1، ص 85).

12- (العَقْد: ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين، يقال له حساب اليد).

13- (الجاحظ، 1998، ج1، ص 76).

14- (الجاحظ، 1998، ج1، ص 79).

"إنّ تقديم الجاحظ لرتبة الإشارة على رتبة اللفظ ثمين في بابه، ودليل على عمق نظرته، فقد تتوارى اللغة الناطقة للتعمية، والتغطية، والإسرار لحاجاتٍ في النفس شتّى، وتتجلّى اللغة الصامتة الدّالة، فتكون ثم إيماءات، وحركات من الحاجب، والعين، والكفّ"(15).

لذا نجد الجاحظ قد أورد شواهد كثيرة تشير إلى أهمية لغة الإشارة، وتقدمها على اللغة اللفظية، وقد ركّز على العين؛ لأنّها الأهم في الإفصاح عن ذلك، ومنها "ما ساقه مثالاً مبيناً عن ذلك بالعين المُسَلِّمة في مقام لقاء العاشقين في حضرة الأهل، وليس يخفى أنّ مقامات الحرج الاجتماعيّ تُؤْذِن بأن تكون رتبة لغة الجسد "الإشارة" مُتَقَدّمة وجوباً على رتْبة اللّفظ في مثْل تلكم المقامات"(16)، ويمثّل ذلك قول الشاعر(17):

أَشارَتْ بِطَرْفِ العَيْنِ خيفَةَ أَهْلِها إِشارَةَ مَحْزونٍ وَلَمْ تَتَكَلَّمِ

فَأَيْقَنْتُ أنّ الطَّرْفَ قَدْ قالَ مَرْحَباً وَأَهْلاً وَسَهْلاً بِالحَبيبِ المُتَيَّمِ

فهنا تقدّمت لغة الإشارة وجوباً على اللفظ، خوفاً من الحرج الاجتماعي. "ولعلّ جلّ ما ذكره الجاحظ في معرض حديثه عن الإشارة، وخاص الخاص مضماره العين الجارحة، وفي ذلك دلالة على فضل العين في التواصل والإبانة عن حواشي النفوس"(18).

ب- الإشارة عند المحدثين:

تعود البداية الحقيقية للاهتمام العلمي بلغة الإشارة إلى نهاية الستينيات وبداية السبعينيات، إلا أنَّ هذا لم يمنع بعض الباحثين من التأكيد بأنّه على مر التاريخ وفي أي مكان في العالم يوجد فيه صم، ستكون هناك لغة إشارة، فتاريخها مرتبط بوجود الصم، فهي أساس تعليمهم. لذا شغلت الإشارة كثيراً من العلماء والباحثين المحدثين، منهم اللغويّون، وعلماء الاجتماع، وعلماء النفس، وعلماء التربية، وغيرهم، خاصة في الغرب.

إنّ ظاهرة الإشارة (الاتصال غير الشفهي) "لم تُدرّس عمليّاً على أيّ مقياس إلا منذ الستينيات، وأنّ الجمهور لم يعِ وجودها إلا عندما نشر (دجوليوس فاست) كتابه عن لغة الجسد في سنة (1970)، كان ذلك موجزاً للعمل الذي قام به علماء السلوكيّة حول الاتصال غير الشفهي حتى ذلك الحين، وحتى يومنا هذا، فإنّ معظم الناس ما يزالون جاهلين وجود لغة الجسد، بصّ النظر عن أهميتها في حياتهم"(19).

لقد أخذت لغة الإشارة تتسع في ثقافتنا العربية، -التي هي امتداد للثقافات الغربية- لتشمل كل ما يتعلّق بالتواصل الإنساني، حيث صُنِّف في الأدبيات الغربية الحديثة والمعاصرة ضمن فئات، قد يكون فيها من التداخل والتعارض ما يكون، ومن هذه الفئات -على سبيل المثال لا الحصر- "لغة الجسد وتشمل: الإيماء، ووضع الجسم، وتعبيرات الوجه... إلخ، ولغة العيون: فالعيون تحب، وتكره، وتقتل، وتنفر، وتخاف، وتضطرب، وتحزن، وتصدق، وتكذب، وتخدع...إلخ"(20). وستبرز هاتان الفئتان -تعبيرات الوجه والعينين- وتتضحان أكثر في هذه الدراسة لاحقاً.

15- (عرار، 2007، ص 9- 80).

16- (المصدر نفسه، ص 81).

17- (ابن أبي ربيعة، 1996، ط2، ص 311).

18- (عرار، 2007، ص 80- 81).

19- (آلن بيز، 1997، ط1، ص 7).

20- (أبو الرّوس، 2002، ص 67-70).

اللغة الإشارية في القرآن الكريم: لغة الوجه والعينين:

لقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة على أوصاف من الحركات الجسدية التي تَشي باللغة غير اللفظية، كذكر العين والطّرْف، والجبين والجبهة، والخدّ، والوجه، والأذن، والرأس ... وغيرها كثير، وهذه الحركات تؤدّي إلى معانٍ ودلالاتٍ، وهي طريقة سلكها الأسلوب القرآني من وسائل وصف المعنى وتشكيله، فتجيء الكتابة مُعبّرة عن ذلك؛ كتقديم رِجْل وتأخير أخرى دلالة على الحيرة والتردد، أو تقليب الكفّين في مقام الندم، وقد أجمع أهل العلم على أنّ "الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح. وأن للاستعارة مزيةً وفضلاً"(21). فلو قيل أراك تُقدّم رِجلاً وتؤخّر أخرى، فإنَّ هذه الحركة توحي بالتردّد، وهي أبلغ من اللفظ الصريح، "بلغني أنَّك تتردّد في أمرك، وأنَّك في ذلك كمن يقول: أخْرُج ولا أخرُج، فتقدِّم رِجلاً وتؤخّر أخرى"(22).

إنَّ للوجه والعينين دوراً في الاتصال والإشارة، فالاتصال بين شخصين التقيا وجهاً لوجه يتم بتبادل النظرات، ثم بابتسامة، وإذا عبَسَ أحدهما في وجه الآخر أو قطّب حاجبيه، أو حدّق بصره، "فهذه التعبيرات قد ينشأ عنها بعض الانفعالات الأساسية لدى الإنسان، مثل: الرضا، والبهجة، والسرور، والدهشة، والحزن، والاشمئزاز، والخوف، والغضب، والنفور... إلخ. وقد يحدث ذلك عند الرجال والنساء والأولاد وحتى الحيوانات بالنسبة إلى بعضها؛ ولكن تعبيرات الوجه والعينين ليست انعكاساً للانفعالات فحسب، بل هي انعكاس للشخصية أيضاً، فكل شخص يتمتع بمجموعة من التعبيرات التي يستخدمها مراراً في كل يوم"(23).

لذا سيتم تناول تعبيرات الوجه والعينين –كلاً على حدة– حسبما وردت في آيات القرآن الكريم، وحملت دلالات ومعاني، لا تقل عن تلك الدلالات والمعاني التي تحملها اللغة المنطوقة.

أولاً: لغة الوجه:

يعدُ الوجه من أشرف أعضاء الجسد وأهمها، إذ من خلاله وعبر العلامات التي تظهر عليه، يمكن للناظر أن يعرف إنْ كان صاحب هذا الوجه مرتاحاً أم متعباً، فرحاً أم حزيناً، مطمئناً أم قلقاً، في حالة غضب أو خوف أو ترقب أو إحباط، كما بوساطته يمكننا التواصل مع الناس المحيطين بنا "وقد ثبت أنَّ دلالة الأحوال الموجودة في الوجه، أتمّ من دلالة الأحوال الظاهرة الموجودة في سائر الأعضاء"(24).

لقد تعدد الإيحاءات التي ارتسمت على الوجوه في القرآن الكريم، حيث جاءت واضحة عبر ألفاظ خاصة تؤشر إلى العلامات التي تحكي الانفعالات والمشاعر والأحاسيس، قسم منها يحكي نعيم المؤمنين والراحة النفسية التي يعيشونها يوم القيامة، في حين تحدث القسم الثاني عن عذاب الكافرين وما يلازمه من حزن، وعذاب، وتعب نفسي، وتبعاً لذلك، فقد قُسّمت الآيات إلى قسمين رئيسين، تناولنا في القسم الأول الآيات الدّالة على الوجوه المنعّمة في القرآن الكريم، وتناولنا في القسم الثاني الآيات الدّالة على الوجوه المعذّبة، واللافت للنظر في هذه الآيات أنها انقسمت إلى قسمين بشكل متساوٍ، حيث أشارت ثمانية مواضع إلى الوجوه المنعّمة، في حين أشارت الثمانية الأخرى إلى الوجوه المعذّبة.

1– الوجوه المنعّمة ودلالاتها:

أ– الوجوه المبيضّة:

---

[21]– (الجرجاني، 1992، ص 70).

[22]– (المصدر نفسه، ص 70).

[23]– (ناتالي باكو، 1995، ط1، ص 62– 63).

[24]– (أرسطاطاليس، 1995، ط1، ص 56).

قال تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}(25). تشير اللفظتان (تَبْيَضُّ)، و(ابْيَضَّتْ) إلى وجوه المؤمنين الذين نعموا برضوان الله، وشملتهم رحمته، ودخلوا جنّته يوم القيامة، فبياض الوجه يظهر نور المؤمنين، وطهارة قلوبهم، وصفاء نفسياتهم؛ ليراهم الناس يوم القيامة على حقيقتهم، وليجزيهم الله على أعمالهم الصالحة، ويدخلهم جنات النعيم. فهو علامة من علامات الوجوه المنعّمة يوم القيامة، ودليل على الفرح والسرور والبشاشة والنضارة، وحُسْن المصير، ويقول الزمخشري في تفسير الآية: " البياض من النور، والسواد من الظلمة، فمن كان من أهل نور الحق وسم ببياض اللون وإسفاره وإشراقه، وابيضت صحيفته وأشرقت، وسعى النور بين يديه وبيمينه"(26)، ويقول أبو حيّان الأندلسي: "إنّ ابْيِضَاضَ الْوُجُوهِ وَاسْوِدَادَهَا عَلَى حَقِيقَةِ اللَّوْنِ"(27). ولعل استخدام الفعلين المضارع (تَبْيَضُّ)، والماضي (ابْيَضَّتْ) في هذه الآية –فيما يرى الباحثان– إلى أمرين مهمّين، أولهما: يشير الفعل المضارع إلى التجدد والاستمرار، وهذا إشارة إلى تجدد بياض وجوه المؤمنين المنعمين، واستمراره في أثناء حسابهم. ثانيهما: يشير الفعل الماضي إلى الثبات، وهذا إشارة إلى ثبات لون وجوه المؤمنين الأبيض بعدما حوسِبوا، وأخذوا جزاءهم بدخولهم الجنة، إذ إنّ بياض الوجوه سيبقى ثابتاً، وعلامة على سعادتها، ونعيمها، وخلودها في جنات النعيم.

ب– الوجوه النضرة:

قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَة. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَة}(28)، وقوله تعالى: {إِنَّ الأَبْرَارَ لَفِي نَعِيم. عَلَى الأَرَائِكِ يَنظُرُون. تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيم. يُسْقَوْنَ مِن رَّحِيقٍ مَّخْتُوم}(29). تشير كلمة ناضرة إلى أكثر من معنى، فقد تأتي بمعنى " الحسن كالنضارة، ونضر وجهه ينضر فهو ناضر"(30)، وقد تأتي بمعنى السعادة، والحسنة، فالوجوه الناضرة هي "وجوه أهل السعادة، وهي حسنة الوجه من أثر النعمة والفرح، وكنّيَ بنضرة الوجوه عن فرح أصحابها ونعيمهم"(31). إنّ هذه الوجوه المشرقة، تعبر من خلال نضارتها ورونقها، عن سعادة المؤمنين واطمئنانهم، "فإذا رأيتهم عرفت أنّهم من أهل النعمة، بما ترى في وجوههم من النور، والحسن، والبياض، والبهجة"(32).

ولم يكتف الله –عزّ وجلّ– في هاتين الآيتين بوصف الوجوه بالنضارة والحُسْن، بل بيّن سبب نضارتها وهو النعيم الذي حصل عليه المؤمنون يوم القيامة، والراحة النفسية التي هم عليها، فجاء التعبير في غاية الدقّة، وذلك من خلال استخدام الفعل (تَعْرِفُ)، ففيه إشارة دقيقة إلى حالهم، فالفعل (عرف) يدل على العلم بالشيء علم اليقين، يقول الفيومي في مصباحه المنير: "عرفته عِرفة بالكسر وعرفانا علمته بحاسة من الحواس الخمس"(33)، فالرؤية من طرق المعرفة، وليست المعرفة نفسها، في حين، إن الآية تريد الإشارة إلى المعرفة بعينها والتي تدل على العلم اليقيني، ولا تريد طريقاً من طرق المعرفة؛ لذلك جاء التعبير بالفعل (تَعْرِفُ)

---

[2]– (سورة آل عمران، آية 106–107).

[26]– (الزمخشري، 1986، ط3، ج1، ص 399).

[27]– (أبو حيان الأندلسي، 1999، ج3، ص 292).

[28]– (سورة القيامة: آية 22–23).

[29]– (سورة المطففين: آية22–25).

[30]– (الأصفهاني، 1991، ط1، مادة نضر، ص 810– 811).

[31]– (ابن عاشور، 1984، ج29، ص 352– 353).

[32]– (الطبرسي، 2006، ط1، ج10، ص 229).

[33]– (الفيومي، 1987، ط2، مادة عرف، ص 154).

وبصيغة المضارع؛ للدلالة على هذا المعنى الدقيق، ولاستمرار المعرفة بحالهم وبنعيمهم الذي حصلوا عليه، جزاءً لأعمالهم التي عملوها في دار الدنيا.

ج- الوجوه المشرقة الضاحكة المستبشرة:

قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُّسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُّسْتَبْشِرَةٌ}(34). تصف الآية الكريمة وجوه المؤمنين المنعّمة بثلاث صفات، فهي مسفرة أي مضيئة، جاء في المصباح المنير: "أسفر الصبح إسفاراً أضاء، وأسفر الوجه من ذلك، إذ علاه جمال"(35)، وهي وجوه "متهلّلة فرحاً وعليها أثر النعيم"(36)، وهي ضاحكة "فرحة بما تجد من برد اليقين بأنها ستوفّى ما وعدت به جزاء إيمانها وما قدمت من عمل صالح، وبشكرها لنعم ربها وآلائه، وإيثارها ما أمرها به على ما تهواه بسبب السرور الذي أصابها"(37)، لذلك فالضحك لا يفارق وجوه المؤمنين؛ لانعدام الحزن في نفوسهم، وهو من علامات سرورهم.

ح- الوجوه الناعمة المترفة:

قال تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ. لِسَعْيِهَا رَاضِيَةٌ. فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ}(38). تشير هذه الآية إلى وجوه المؤمنين حيث النعومة، وترف العيش، وجمال المنظر؛ لما يعيشه أصحابها من فرح وسعادة، فلا وجود لحزن أو خوف أو ما يعكّر صفو حياتهم، ويغيّر ملامح وجوههم، فهي "يومئذ ذات نضرة وبهجة، ولا تكون كذلك إلا إذا كانت منعمة فرحة بما لاقت جزاء سعيها في الدنيا ورضى الله عنها"(39).

فضلاً عمّا تقدم، فإنّ ملامح الرضا قد ظهرت على وجوه المؤمنين، إذ "نعمت بما عاينت من عاقبة أمرها وعملها الصالح؛ لسعيها الذي عملته في الدنيا، راضية في الآخرة"(40)، لذا فقد أحسوا بالراحة النفسية التي ظهرت على وجوههم؛ بسبب اطلاعهم على جزائهم الذي أرضاهم، وأراح قلوبهم بعد الجهد والعناء الكبير الذي عانوه في الدنيا، وبعد شتى الابتلاءات التي تعرّضوا لها في حياتهم الدنيوية.

2- الوجوه المعذّبة ودلالاتها:

أ- الوجوه المسودّة:

قال الله تعالى: {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}(41).

تشير اللفظتان (تَسْوَدُّ)، و(اسْوَدَّتْ) إلى وجوه الكافرين السوداء يوم القيامة؛ لما يلقونه من فزع وترقب وخوف من العذاب في ذلك اليوم العصيب. إنّ للّون قدرة إيحائية عالية لما له من بعد فكري ونفسي، وفي هذه الآية كان استخدام اللون الأسود للدلالة على

34- (سورة عبس: آية 38-39).

35- (الفيومي، 1987، ط2، مادة سفر، ص 106).

36- (ابن عاشور، 1984، ج30، ص 137).

37- (المراغي، 1946، ط1، ج30، ص 50).

38- (سورة الغاشية: آية 8-10).

39- (المراغي، 1946، ط1، ج30، ص 134).

40- (القرطبي، 1964، ط2، ج20، ص 32).

41- (سورة آل عمران: آية 106-107).

الهمّ والبؤس، "فالوجه عند الهم الكبير يميل لونه إلى السواد والكدرة، وذلك كناية عن كلوحه وبؤسه وهمومه"(42)، وبهذا يكون اللون الأسود علامة خوف وحزن طبعت على وجوه الكافرين.

من جانب آخر نجد أن الغرض من ورود الطباق في الآية عبر الألفاظ (تَبْيَضُّ)، و(تَسْوَدُّ)، و(اسْوَدَّتْ)، و(ابْيَضَّتْ)، كان بقصد –فيما نرى– التنبيه على عظم الفرق بين وجوه المؤمنين، ووجوه الكافرين يوم القيامة، والإشارة إلى فرح المؤمنين في ذاك اليوم، وحزن الكافرين وعذابهم وعاقبتهم السيئة.

ويبقى اللون الأسود علامة تميّز وجوه الكافرين يوم القيامة، إذ يقول الله تعالى: {وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُواْ عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُم مُّسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ}(43)، ففي هذه الآية امتازت وجوه الكافرين الذين كذبوا على الله بالسواد؛ لزعمهم أنّ له ولداً، وأنَّ له شريكاً، "واسوداد وجوه الكاذبين يوم القيامة دليل على ذلّتهم وهوانهم وافتضاحهم ، وكما هو معروف، فإنّ ساحة ظهور الأسرار والخفايا، وتجسيد أعمال الانسان وأفكاره، فالذين كانت قلوبهم سوداء ومظلمة في الدنيا، وأعمالهم وأفكارهم سوداء ومظلمة أيضاً، يخرج هذا السواد والظلام من أعماقهم إلى خارجهم في يوم القيامة، ليطفح على وجوههم التي تكون في ذلك اليوم مسودّة ومظلمة"(44).

وفي آية أخرى يخبرنا الله تعالى عن سواد وجوه الكافرين في الدار الآخرة، إذ يقول: {وَالَّذِينَ كَسَبُواْ السَّيِّئَاتِ جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَّا لَهُم مِّنَ اللّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعًا مِّنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}(45)، وهنا، يصف الله وجوه الكافرين بالسواد من خلال استخدام لفظتي (الليل)، و(مظلماً)، إشارة إلى اللون الأسود، فالليل أسود، والظلام أسود، وهذا "تصوير بديع للظلام الحسي والمعنوي الذي يبدو على وجوه هؤلاء الظالمين، حتى صارت شديدة السواد واضحة الكدرة والظلمة"(46)، وفي ذلك دلالة على عمق اللون الأسود الظاهر على وجوههم، والذي شكّل علامة ميّزت هؤلاء الكافرين.

ب– الوجوه المغبرّة:

وهذه الوجوه يظهر عليها الإرهاق والتعب والمشقة، كما في قوله تعالى: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَة. تَرْهَقُهَا قَتَرَة. أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَة}(47)، قد امتازت بأنَّ عليها غبرة وترهقها قترة، والغبرة: "ما يعلق بالشيء من الغبار وما كان على لونه"(48)، والقترة: "شبه دخان يغشى الوجه من الكذب"(49)، وهذا يشير إلى اسوداد وجوه الكافرين بسبب الغبار والدخان الذي انطبع عليها. قال الألوسي: "وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ أي غبار وكدورة، تَرْهَقُها أي تعلوها وتغشاها، قَتَرَةٌ أي سواد وظلمة، ولا ترى أوحش من اجتماع الغبرة والسواد في الوجه"(50).

ج– الوجوه الكالحة:

42– (الشيرازي، 2003، ط1، ج1، ص 377).

43– (سورة الزمر: آية 60).

44– (الشيرازي، 2013، ط1، ج11، ص 495).

45– (سورة يونس: آية 27).

46– (طنطاوي، 1998، ط1، ج7، ص 60).

47– (سورة عبس: آية 40–42).

48– (الأصفهاني، 1991، ط1، مادة غبر، ص 601).

49– (المصدر نفسه، 1991، ط1، مادة قتر، ص 655).

50– (الألوسي، 1994، ط1، ج15، ص 252).

وتبدو هذه الوجوه كالحة كما في قوله تعالى: {وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ}(51)، فالكلوح هو "تكشّر في عبوس شديد للوجه"(52)، وهو أيضاً "تقلص الشفتين وظهور الأسنان من أثر تقطب أعصاب الوجه عند شدة الألم"(53)؛ بسبب الخوف والفزع الذي وقع عليه.

لقد خصّ الله –عزّ وجلّ– الوجوه من بين باقي أعضاء الجسم؛ لأنها أشرفها، لذلك وصف حال النار وحال وجوههم فيها، يقول صاحب تفسير المراغي: "تلفح وجوههم النار، أي تحرق النار وجوههم، وهم فيها منقلصو الشفاه من أثر ذلك اللفح"(54). من هنا نجد أن لفظة الكلوح في وجوه الكافرين تحمل دلالتين وصورتين للوجوه المعذبة يوم القيامة، الأولى تشير إلى تكشّر وجوههم بسبب الحزن والفزع والقلق الذي وقع عليهم يوم القيامة، والثانية تشير إلى شدّة احتراق وجوههم بالنار، لدرجة أنّها قد انكمشت وتقلّصت، وهما صورتان تمارسان ترهيباً واضحاً للإنسان؛ بهدف ترهيب الإنسان من المصير للأذى الذي ينتظره إذا ما بقي على كفره وإلحاده.

ح– الوجوه الباسرة:

وصف الله تعالى وجوه الكافرين بأنّها باسرة، كما في قوله: {وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ. تَظُنُّ أَن يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ}(55)، وباسرة تعني "عابسة كالحة مغبرة مسودة"(56)، والبَسر هو "الاستعجال بالشيء قبل أوانه"(57)، وبسر حاجته أي "طلبها في غير أوانها أو في غير موضعها"(58)، وقوله –عز وجلّ–: {ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ}(59)، أي: "أظهر العبوس قبل أوانه وفي غير وقته، وقيل: إن ذلك إشارة إلى حالهم قبل الانتهاء بهم إلى النار، فخص لفظ البسر، تنبيهاً أنَّ ذلك مع ما ينالهم من بعد، يجري مجرى التكلف ومجرى ما يفعل قبل وقته"(60). وبهذا فإنَّ كلمة (البسور) تصور حال الكافرين قبل وقوع العذاب عليهم، حيث الخوف والحزن والقلق من القادم المجهول، كل ذلك يكون واضحاً على وجوههم، فكلما نظروا إلى صحائف أعمالهم المليئة بالسيّئات، تحسّسوا العذاب القادم، واستشعروا بعلاماته؛ فعبست وجوههم، وظهرت علامات الأسى والخوف قبل وقوع العذاب.

5– الوجوه الذليلة:

ومن علامات الوجوه المعذّبة يوم القيامة، قوله تعالى: {هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ. وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ. عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ. تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً}(61)، تذكّرنا هذه الآية بالآخرة وبيان أحوال الناس فيها، وأنّهم منقسمون إلى فريقين، فريق في الجنة، وفريق في السعير، فوجوه الفريق الأخير في ذلك اليوم خاشعة، أي ذليلة، ذلّها بأعمالها، وهي الوجوه المسودّة التي اسودّت وانطفأ نورها، وانطمست بصائرها بسبب سوء أعمالها، والأهوال التي تشاهدها، "فأصحابها يشاهدون الويلات والشدائد والأهوال، ويكونون خاضعين لما

---

[51]– (سورة المؤمنون: آية 103–104).

[52]– (الزاوي، 1983، مادة كلح، ص 535).

[53]– (ابن عاشور، 1984، ج18، ص 127).

[54]– (المراغي، 1946، ط1، ج18، ص 58).

[55]– (سورة القيامة: آية 24– 25).

[56]– (الزيد، 1995، ط1، ج6، ص 991).

[57]– (الأصفهاني، 1991، ط1، مادة بسر، ص122).

[58]– (ابن منظور، 1993، ط3، مادة بسر، ج4، ص57).

[59]– (سورة المدثر: آية 22).

[60]– (الأصفهاني، 1991، ط1، مادة بسر، ص122).

[61]– (سورة الغاشية: آية 1–4).

يراد بهم، أذلة لما يغشاهم"(62)، ومن صفات هذه الوجوه المعذّبة أنها عاملة ناصبة، وفي هذا إخبار بأنها لا راحة لها ولا طمأنينة ولا سكن، بل هي في عناء ومشقة، فعاملة صفة توحي بالجهد الذي بذله الكفار في الدنيا، فهي ذات نَصَبٍ وتعب بالسلاسل والأغلال، أما ناصبة فهي صفة تشير إلى الإرهاق الذي أصابهم بما عملوا في الدنيا، فعملهم لم يكن لله، بل كان إرضاءً لأنفسهم الأمارة بالسوء، لذا فإننا نرى وجوههم مظلمة خائفة، وفي ذلك إيحاءٌ بالانكسار النفسي، والتعب الجسدي الذي أصاب أصحابها.

يتّضح لنا مما سبق أنَّ الوجوه المعذّبة يوم القيامة تكون سوداء وكالحة وعبوسة وخاشعة من الذلّ والهوان والتعب وغيرها من الصفات، لذا ظهر على وجوههم الخوف والقلق والترقب والحزن، وهذا ما انعكس على حالتهم النفسية المتعبة، وعلى إحساسهم بالخسران المبين يوم القيامة.

ثانياً: لغة العينين:

تُعدّ العين كغيرها من الجوارح الإنسانية، ومن الأعضاء التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، وعبّر عن سلوكها الذي يميل إليه في نظرها، وما يحمل ذلك من دلالاتٍ ومعانٍ. وقد تجلى ذلك في الحديث عن مدى ضيق الحدقة أو اتساعها، وما يصاحب حركة العين من دوران في كل الاتجاهات، واسترق النظر، وزَوَغان البصر، وجاء ذلك الحديث في لفظ العين، ولفظ الطَّرْف، ولفظ البَصر.

وللعين ميزة في التواصل، والاتصال بين البشر، وفي الإبانة عمّا يدور في النفوس، فهي أول ما ينظر إليه معظمنا عندما نتقابل مع شخص ما، بل هي وسيلة بليغة للتعبير عمّا يدور في أنفسنا ونقله للخارج، "فمن خلالها يمكننا تحديد ما إذا كان الشخص سعيداً بلقائنا ومرحّباً بنا، أم أنّه ينظر إلينا بعين الشك، وهل نظراته إلينا تنم عن الغضب تجاهنا؟ وهل يقول الحقيقة أم أنَّه يكذب؟"(63)؛ لذا قيل: "إنَّ العين بابُ القلب؛ فما كان في القلب ظهر في العين"(64).

لقد ذكر القرآن الكريم صورةً حركيةً للعين تتباين بتباين السياق والحال، فانبنى على ذلك تباين في الدلالة التي تشير إليها كل حركة للعين، "فالعين تنطق والأفواه صامتة"(65). لذا سوف نقف عند هذه الإشارات والتعبيرات في القرآن الكريم؛ لتفكيك لغة العينين في آيات كريمات، بهدف الوصول إلى الدّلالات والمعاني المقصودة. ومنها:

1- النظرات المعبرة عن العفّة والطهارة:

أ- غض البصر:

قال تعالى: {قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ. وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ}(66)، وفي هذه الآية يأمر الله –سبحانه وتعالى– المؤمنين بأن "يغضوا أبصارهم عما يحرم أو يكره النظر إليه وبأن يحفظوا فروجهم عما لا يحل لهم، فإن ذلك دليل على كمال الإيمان!، وعلى حسن المراقبة وشدة الخوف من الله تعالى"(67)، لذا وجّه الخطاب لأهل الإيمان؛ لأنهم المتأهلون للقبول عن الله، وذلك أنّ إيمانهم يقتضي الاستجابة، والانقياد، والتسليم، وغضّ البصر هو "كفّ النظر على ما يحرم النظر إليه، والغضّ هو إطباق الجفن على الجفن

62- (السَّبزواري، 1985، ط1، ج7، ص378).

63- (ناعومي آر. تيكل، 1983، ص 75).

64- (ابن عبد ربه، 1983، ج2، ص 204).

65- (عرار، 2007، ص 173).

66- (سورة النور: آية 30-31).

67- (طنطاوي، 1998، ج10، ص 115).

بحيث يمنع الرؤية"(68)، فغض البصر أطهر لقلوب المؤمنين ولنفوسهم ولدينهم، "فالنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فالنظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد، ما لم يمنع منه مانع، وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده"(69)، وبذلك فإن الهدف من غضّ البصر هو إقامة مجتمع نظيف، لا تهاج فيه الشهوات، فالنظرة الخائنة، والحركة المثيرة، والزينة المتبرجة، والجسد العاري، تهيج الشهوات عند الإنسان، وبعد ذلك إما الإفضاء الفوضوي الذي لا يتقيد بقيد، وإما الأمراض العصبية، والعقد النفسية التي تنشأ عن الكبح بعد الإثارة.

ب- قصر الطرْف:

قال تعالى: {وَعِندَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ}(70)، ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة ثلاث صفات من صفات نساء أهل الجنة، أولاها: أنهن قاصرات الطرف، والطرف عين، وقصر الطرف هو غضّه أو حبسه عن النظر، وقاصرات الطرف هن "نساء قصرن أعينهن على أزواجهن فلا يردن غيرهم، ولا يمددن طرفاً إلى غيرهم حياءً وعفّةً"(71)، ولا ينظرن إلى غيرهم لشدة اقتناعهن واكتفائهن بهم، وثانيها: أنهن عين، والعين جمع عيناء، وهي واسعة دار العين، وهي النجلاء، وثالثها: أن ألوانهن بيض بياضاً مشرباً بصفرة؛ لأن ذلك هو لون بيض النعام الذي شبههن به، " وهذا على عادة العرب في تشبيه النساء بها. وخصت ببيض النعام، لصفائه وكونه أحسن منظراً من سائره"(72)، والطرف هو: "تحريك الجفن، ويعبّر عنه بالنظر إذا كان تحريك الجفن قد لازمه النظر"(73)، وهذه الصفات المذكورة أعلاه، جاءت موضَّحَةً في غير هذا الموضع مع غيرها من صفاتهن الجميلة، كقوله تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ}(74)، من هنا نجد أنّ للعين دلالة جمالية، فللمرء أن يتخيّل مدى الجمال الكامن في عين الحوراء وبالرغم من ذلك، فهي عفيفة طاهرة شريفة، ليست في متناول إلا من يستحقها.

2- النظرات المعبرة عن سلوك مستقبح (التغامز):

قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُوا مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ. وَإِذَا مَرُّوا بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ}(75), يخبرنا الله تعالى عن حال المجرمين عند مشاهدتهم للمؤمنين، حيث كانوا يضحكون من المؤمنين، ويستهزئون بهم، ويحتقرونهم، وإذا مروا بهم تراهم "يشيرون إليهم بالعين استهزاءً"(76)، والغمز عبارة عن "إشارة بالعين والحاجب والجفن، يقال غمزه غمزاً، وفيه تغامز القوم؛ أشار بعضهم إلى بعض بأعينهم، والتغامز صيغة تفاعل تقتضي المشاركة في الغمز، والإشارة بالعين والحاجب والجفن استهزاءً"(77)، وجاء في تفسير الزمخشري (يتغامزون)؛ أي "يغمز بعضهم بعضاً، ويشيرون بأعينهم"(78)، فقد يكون الغمز بمعنى العيب، ونوعاً من

68- (عتريس، 1998، ص 443).

69- (ابن قيم الجوزية، 1997، ط1، ص 153).

70- (سورة الصّافات: آية 48).

71- (عتريس، 1998، ص 495).

72- (القاسمي، 1997، ط1، ج8، ص 209).

73- (الأصفهاني، 1991، ط1، مادة طرف، ص517).

74- (سورة الرحمن: آية 57).

75- (سورة المطففين: آية 29- 30).

76- (البغوي، 2002، ط1، ص1392).

77- (ابن منظور، 1993، ط3، مادة غمز، ج5، ص388).

78- (الزمخشري، 1986، ط3، ج4، ص 724).

أنواع السخرية كما هو حال الكافرين عند مشاهدتهم للمؤمنين يقولون: "انظروا إلى هؤلاء يتعبون أنفسهم، ويحرمونها لذاتها، ويخاطرون بأنفسهم في طلب ثواب لا يتيقنونه"(79)، وقد لا يكون الغمز سخرية، وإنما لإفهام أمر معين، أو إشعار بالخروج من المجلس. وهكذا جاءت الدلالة المتولدة من حركة العين هذه إشارة إلى النظرات الغامزة التي تمثلت في السخرية.

ومن صور التغامز بالعين –أيضاً– استراق النظر، وهذا نجد في قوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ}(80)، قيل عن خائنة الأعين: "هي التي تختلس النظر إلى المحرّم وتسارقه"(81) إلى ما لا يحلّ النظر إليه، فالغمز بالعين اختلاس تترشح منه دلالة تتمثل في الريبة.

ومن الغمز بالعين قوله تعالى في الحديث عن المنافقين: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا ۚ صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ}(82)، فهذه الآية تفضح المنافقين وتكشف أسرارهم، وتبيّن أنَّ التغامز بالعيون قد يكون "إنكاراً للوحي، وسخرية به"(83)، وقد يكون كراهية لسماع السورة النازلة، فتراهم يقولون: "هل يراكم الرسول –صلى الله عليه وسلم– أو المؤمنون إذا قمتم من المجلس"(84)، وقد يكون التغامز بياناً لغيظ نفوسهم، وقيل: إنّ نَظَرَ بعضهم إلى بعض وتغامزهم، كان غيظا لما في السورة من مخازيهم وبيان قبائحهم"(85)، من هنا تعدّ حركة الغمز بالعين من الحركات التي تخفي وراءها كثيراً من النظرات الدّالة على السخرية، أو الاستهزاء، أو مغادرة المجلس، أو الغيظ، أو الغضب، فهي لغة متبادلة بين مرسليها تشفُّ عن عداوة، وتنمُّ عن كيد للآخرين.

3– النظرات المعبرة عن الخوف:

ومن النظرات المعبرة عن الخوف قوله تعالى: {فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ}(86)، فهذه الآية تصف خوف المنافقين من القتال وانصرافهم عنه، وتَجلّى هذا الخوف في العيون الدائرة المضطربة، لذلك نراهم إذا ذُكِرَ القتال صاروا "كما ينظرُ المغشيُّ عليه من معالجة سكرات الموت حَذَراً، وخوَراً، ولِواذاً"(87). إنَّ دوران الأعين باعثه ذهاب العقل حتى لا يصح منهم النظر إلى أي جهة، لذا فقد أظهرت هذه الجارحة في هذا السياق القرآني ما تضمره نفوس المنافقين من اضطراب، وفزع، وخوف.

ومن صور الأبصار المعبرة عن الخوف والفزع قوله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ}(88)، تصوّر هذه الآية جُبْن المنافقين، وما يُضْمِرونه داخل نفوسهم من خوف ووجل، عند ذِكْر القتال، والمغشيُّ من "الغاشية والغشاء والغَشاوة: الغطاء.

79– (الزحيلي، 2003، ط2، ج15، ص506).

80– (سورة غافر: الآية 19).

81– (الزحيلي، 2003، ط2، ج12، ص414).

82– (سورة التوبة: آية 127).

83– (القاسمي، 1997، ط1، ج5، ص 532).

84– (المراغي، 1946، ط1، ج11، ص 52).

85– (الألوسي، 1994، ط1، ج6، ص 48).

86– (سورة الأحزاب: آية19).

87– (الزمخشري، 1986، ط3، ج3، ص 530).

88– (سورة محمد: آية 20).

ويقال الغاشية والغِشاوة لغطاء خاص، هو جلدة تُغشّى القلب، فإذا انخلع منها القلب مات صاحبه"(89)، فالدلالة المترشحة من هذه الحركة تمثلت فيما لجأ إليه المنافقون من التعبير بأعينهم؛ لإخفاء ما يدور في أذهانهم، وما يُضمرونه من خوف وفزع داخل نفوسهم.

ومن صور النظرات المعبرة عن الخوف أيضاً قوله تعالى: {وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنظُرُونَ مِن طَرْفٍ خَفِيٍّ}(90)، فالنّظر الخفي يبتدئ "من تحريك لأجفانهم ضعيف خفيٍّ بمسارقة، كما ترى المصبور ينظر إلى السيف، وهكذا نظر الناظر إلى المكاره لا يقدر أن يفتح أجفانه عليها، ويملأ عينيه منها، كما يفعل في نظره إلى المجاب"(91)، فالكافرون لمّا رأوا العذاب نظراً خفيّاً "أي لا حدة له فهو كمسارقة النظر، وذلك من هول ما يرونه من العذاب، فهم يحجمون عن مشاهدته للروع الذي يصيبهم منها، ويبعثهم ما في الإنسان من حب الاطلاع على أن يتطلعوا لما يساقون إليه كحال الهارب الخائف ممن يتبعه، فتراه يمعن في الجري ويلتفت وراءه الفينة بعد الفينة لينظر هل اقترب منه الذي يجري وراءه، وهو في تلك الالتفاتة أفات خطوات من جريه لكن حب الاطلاع يغالبه"(92)، من هنا نلاحظ أنَّ دلالة هذه الحركة البصرية تخفي وراءها نفساً خائفة من شيء معيّن، تمثّل في رؤية العذاب وعرضه على الكافرين.

4- النظرات المعبرة عن السخط والكراهية:

ومن النظرات المعبرة عن شدّة الكراهية قوله تعالى: {وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ}،(93) من الواضح أنّ هذه الآية تكشف عمّا تضمره هذه النظرة من حقد، وشرّ، وغيظ تجاه الرسول الكريم –صلى الله عليه وسلم– فجاء ذلك واضحاً من خلال نظرة الانزلاق هذه، والْمَزْلَقُ: المكان الدّحض...، ويقال: زَلِقَهُ وأَزْلَقَهُ فَزَلِقَ، ولم يسمع الزَّلِقُ والْإِزْلَاقُ إلّا في القرآن(94)، فهذه النظرة ترسم مشهداً –فيه كراهية وسخط– للكافرين وهم يتلقون دعوة الرسول–صلى الله عليه وسلم–، إذ تمثلت في أنَّ صاحبها "يُفْصِحُ عن حسد عميق، وغيظ عنيف، ينسكب في نظرات مسمومة قاتلة، يوجهونها إليه"(95)، فالكفّار هنا يزلقون الرسول وصحبه بنظرات حادة تنمّ عن فرط العداوة، وفسّر الزمخشري ذلك بقوله: "يعني أنّهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزراً بعيون العداوة والبغضاء، يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك، من قولهم: نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني، ويكاد يأكلني، أي: لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله. كقول الشاعر:

يتقارضون إذا التَقَوْا في موطنٍ نظراً يُزِلُّ مواطئ الأقدام"(96).

فإشارة العين هنا كناية عن الحقد والكراهية. فهذه النظرة تظهر مدى كراهية الكفار للرسول، وتُفْصِح أكثر ممّا يُفْصِح عنه اللسان من حسد النفس، وعمق الغيض.

89- (عتريس، 1998، ص 476).

90- (سورة الشورى: آية 45).

91- (الزمخشري، 1986، ط3، ج4، ص 231).

92- (ابن عاشور، 1984، ج25، ص 127).

93- (سورة القلم: آية 51).

94- (الأصفهاني، 1991، ط1، مادة زلق، ص 382- 383).

95- (سيد قطب، 2003، ط32، ج6، ص 3671).

96- (الزمخشري، 1986، ط3، ج4، ص 597).

الخاتمة والتوصيات:

حاول الباحثان في هذا البحث الكشف عن اللغة غير المنطوقة في القرآن الكريم من خلال تعبيرات الوجه والعينين، وأثرهما في إيصال الفكرة المنشودة، فهما يمثلان أدوات مساعدة في إيصال المعنى، ويمكن لنا أنْ نجملَ أهم النتائج التي خرج بها البحث على النحو الآتي:

1. إن اللغة الإشارية ذات بُعْدٍ تواصلي، فهي لا تقلّ أهمية عن اللغة المنطوقة، فالاتصال بوساطتها يحمل بُعْداً دلاليّاً أبلغة من اللغة اللفظية.
2. جاءت لغة الوجه والعينين في النص القرآني معبرة –أحياناً– عن معنى الآية، وقد تمثّلت في لفظة أو عبارة.
3. ظهرت لغة الوجه في القرآن الكريم في ستة عشر موضعاً، وقد انقسمت هذه المواضع على قسمين متساويين، إذ أشارت ثمانية مواضع إلى علامات الوجوه المنعّمة، في حين أشارت الثمانية الأخرى إلى علامات الوجوه المعذّبة.
4. جاءت دلالة علامات النعيم التي ظهرت على وجوه المؤمنين في بياض الوجوه، ونضارتها، وإسفارها، وضحكتها، واستبشارها، وإنها ناعمة.
5. جاءت دلالة علامات وجوه الكافرين المعذّبة في الخوف، والقلق، والحزن، والغضب، والندم والخسران، فهي وجوه متعبة، وكالحة، وباسرة، وخاشعة، وعاملة، وناصبة.
6. تعدّ العين رافداً مهماً من روافد اللغة الإشارية، فهي تفصح عن دلالات معينة، ربما لا تصل الكلمة المنطوقة للإشارة إليها كما تشير إليها حركة العين.
7. تعدّدت دلالة حركة العيون في القرآن الكريم، فهناك النظرة المعبرة عن العفة والطهارة، وهناك النظرة المعبرة عن سلوك مستقبح، وهناك النظرة المعبرة عن الخوف والقلق، وهناك النظرة المعبرة عن السخط والكراهية.

أما التوصيات التي خرج بها البحث فيمكن إجمالها بما يأتي:

1. ضرورة الاهتمام بدراسة اللغة الإشارية، فهي لغة تؤدي كثيراً مما لا تستطيع الكلمة المنطوقة أداءه.
2. أن يتم تطوير اللغة الإشارية باعتبارها لغة عالمية؛ لأنها تساهم في فهم المعنى وتحديده.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم

أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني: المفردات في غريب القرآن، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم –بيروت– ط1، 1991م.

أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد الزمخشري: الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، دار الكتاب العربي –بيروت– ط3، 1986م.

أبو حيان محمد بن يوسف الأندلسي: البحر المحيط في التفسير، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر –بيروت– طبعة 1999م.

أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي: تفسير القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية –القاهرة– ط2، 1964م.

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ: البيان والتبيين، تحقيق عبدالسلام هارون، مكتبة الخانجي –القاهرة– ج1، 1998م.

أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي: تفسير البغوي المسمّى معالم التنزيل، دار ابن حزم للطباعة والنشر –بيروت– ط1، 2002م.

أحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد، دار الكتب العلمية –بيروت– ج2، 1983م.

أحمد بن محمد بن علي الفيومي: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مكتبة لبنان –بيروت– 1987م.

أحمد بن مصطفى المراغي: تفسير المراغي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده –مصر– ط1، 1946م.

أرسطاطاليس: سرّ الأسرار، تقديم سامي سلمان الأعور، دار العلوم العربية –بيروت– ط1، 1995م.

آلن بيز: لغة الجسد، تعريب سمير شيخاني، الدار العربية للعلوم –بيروت– 1997م.

أمين الإسلام بن الحسن الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المرتضى –بيروت– ط1، 2006م.

أيمن أبو الرّوس: فن قراءة الوجوه وكشف خبايا النفوس، مكتبة ابن سينا –القاهرة– 2002م.

باكو ناتالي: لغة الحركات، تعريب سمير شيخاني، دار الجبل– بيروت– ط1، 1995م.

جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور: لسان العرب، دار صادر –بيروت– ط2، ج4، 1994م.

جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني –بيروت– ج1، ط1، 1982م.

سيّد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق –بيروت– ط32، 2003م.

شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عبدالباري عطية، دار الكتب العلمية –بيروت– ط1، 1994م.

الطاهر أحمد الزاوي: مختار القاموس، الدار العربية للكتاب –تونس– 1983م.

عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، تعليق محمود محمد شاكر، دار المدني –جدة– 1992

عبدالله بن أحمد بن علي الزيد: مختصر تفسير البغوي، دار السلام –الرياض– ط1، 1995م.

عبدالله عودة: الاتصال الصامت وعمقه التأثيري في الآخرين في ضوء القرآن والسنة، مجلة المسلم المعاصر –القاهرة– عدد 112، 2004م.

عمر بن أبي ربيعة: ديوان عمر بن أبي ربيعة، تقديم فايز محمد، دار الكتاب العربي –بيروت– ط2، 1996م.

محمد الحُسيني الشيرازي: تقريب القرآن إلى الأذهان، دار العلوم –بيروت– ط1، 2003م.

محمد السبزواري: الجديد في تفسير القرآن المجيد، دار التعارف للمطبوعات –بيروت– ط1، 1985م.

محمد الطاهر بن عاشور: التحرير والتنوير، الدار التونسية –تونس– 1984م.

محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية: الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، دار المعرفة –المغرب– ط1، 1997م.

محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي: الجامع لأحكام القرآن الكريم، تعليق عرفات العشّا، دار الفكر –بيروت– 1994م.

محمد جمال الدين بن القاسمي: محاسن التأويل، تحقيق محمد باسل السود، دار الكتب العلمية –بيروت– ط1، 1997م.

محمد سيد طنطاوي: التفسير الوسيط للقرآن الكريم، دار نهضة مصر –القاهر– ط1، 1998م.

محمد عتريس: معجم التعبيرات القرآنية، الدار الثقافية للنشر –القاهرة– ط1، 1998م.

محمد محمد يونس علي: مقدمة في علمي الدلالة والتخاطب، دار الكتب الجديدة المتحدة –بيروت– ط1، 2004.

محمد محمود بني يونس: سيكولوجيا الواقعية والانفعالات، دار السيرة –عمان– ط1، 2007م.

مهدي أسعد عرار: البيان بلا لسان، دار الكتب العلمية –بيروت– ط1، 2007م.

ناصر مكارم الشيرازي: الأمثل في تفسير كتاب الله المُنْزل، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات –بيروت– ط1، 2013م.
ناعومي آر. تيكل: بإمكانك قراءة لغة الوجوه، مكتبة جرير، د. ت.
وهبة الزحيلي: التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، دار الفكر –بيروت– ط2، 2003م.